اسمعوا صيحة الحق

للدكتور زكي مبارك

أخي الأستاذ الزيات :

— ما هذا الذي نشرته في مجلتك لبعض أدباء لبنان ؟ وكيف جاز أن تقول : « إن في الاطلاع عليه فائدة من جهة صوابه ومن جهة خطأه » وهو بعيد كل البعد من الصواب ؟

أفي الحق أن أدباء لبنان ينافسون أدباء مصر ؟

ليت ذلك كان صحيحاً . فقد شقينا من غير طائل في البحث عن المنافسين حتى خشينا أن تفتر عزائمنا لقلة من نصاول ونقاتل من أقطاب البيان

إن ذلك الأديب اللبناني دلنا على أن العقل في بعض البيئات الأدبية في لبنان لا يزال في طور الطفولة البريئة ، وكل شيء من

— الأطفال الأبرياء مقبول

ألم يقل إن مصر لم يصدر فيها كتاب واحد ذو قيمة لمؤلف مصري صميم ؟

فإن لم يكن هذا الحكم من أحكام الأطفال الأبرياء ، فكيف تكون أحكام الأطفال الأبرياء ؟

* * *

ولنفرض أيها الأخ أن مصر ليس لها وجود أدبي كما يتوهم بعض أهل لبنان ، فهل لكم أن تدلوني على الأسباب الصحيحة التي قضت بأن يبذل المستعمرون ما يبذلون ليشوهوا سمعة مصر

— في الأقطار العربية ؟

هل لكم أن تدلوني على الأسباب التي قضت بأن يشقى المستعمرون في الحيلولة بين مصر وبين الأقطار العربية ؟

إن المستعمرين يعرفون أن مطامعهم في الشرق لن تتحقق إلا يوم تضعف اللغة العربية ويضعف سحر الصحف ؛ وهم يعرفون أن مصر تستقتل في سبيل اللغة العربية وفي سبيل الصحف ؛ ولبعض ساستهم الكبار كلمة مأثورة وصلت إلى أسماع من في القبور وإن لم تصل إلى آذان بعض الأحياء !

وأنا لا أتهم من يشوهون سمعة مصر الأدبية بأنهم يخدمون بعض الأغراض الشيوعية أو الاستعمارية ، فذهني لا يسيغ أن يكون فلان وفلان من أهل الضلال ؛ ولكني أرجو أن يتنبه فلان وأشياع فلان إلى أنهم يخدمون المستعمرين من حيث لا يشعرون . والغفلة قد تكون أقبح من الإثم الصريح

وما الذي يغم بعض أدباء لبنان من الطعن في الثقافة المصرية؟ أيستطيعون أن يدّعوا أن في مقدورهم أن يُمدُّوا أهل بلادهم بكل ما تتطلع إليه الأذواق والعقول ؟

أيستطيعون أن يدّعوا أن أهل بلادهم من القناعة والزهد بحيث يكتفون بما يصدر في لبنان من مؤلفات وجرائد ومجلات ؟

أيستطيعون أن يدّعوا أن أدباء مصر لا يملكون من وسائل العناد والعطرسة ما يملك بعض أدباء لبنان يوم يستعر الجدال ؟

أيستطيعون أن يدّعوا أننا سنصفح أبد الدهر عن تطاول بعض الناس فلا نجزيهم عقوقاً بعقوق ؟

* * *

لقد زرت لبنان ، فماذا رأيت ؟

رأيت الطبيعة ورأيت الناس ، ويعزّ عليّ أن أصرح بأن بعض الناس في لبنان يصدّون النفوس عن التطلع إلى جمال الطبيعة في لبنان.

وما الذي يهمنا من الجبل وهو صامت لا ينطق ؟ ما الذي يهمنا من جبل لبنان يوم يصح أن أبناءه يؤذون المروءة جاهلين أو عامدين؟

لقد تعقبتني إحدى مجلاتهم وأنا في بغداد فكتبت تقول :

« سفير المروءة المصرية في العراق يطعن صدر لبنان »

وقد كتبت رداً مفحماً على ذلك المقال الجائر الظلوم ، ثم طويته ترفقاً بلبنان الذي أرجو أن يظل بإذن الله من حصون اللغة العربية . وأنا مستعد لنشر ذلك المقال إن أذن أصدقائي الكرام من أهل لبنان

إن أدباء مصر يملكون من الثروة الذوقية ما لا يملك بعض الناس ، فأدباء مصر هم الذين يشيدون بمحاسن الأقطار العربية ، وهم الذين يُضفون الجمال على كل بلد يحلون فيه ؛ وإلى أقلامهم يرجع السحر الذي يتمتع به جبل لبنان

وأنا مع ذلك أشهد بأننا نرد إلى أهل لبنان بعض ما طوقوا به أعناقنا من وداد : فلمصر فى لبنان مكانة عالية . وفى أدباء لبنان رجال أبرار لا يذكرون مصر بغير الجميل ؛ ومن أجل هؤلاء الرجال الأبرار تتسع صدورنا لما نسمع من فلان وأشياع فلان ، لأننا نعرف أن المرء لا يمثل أمته حين يخطئ ، وإنما يمثلها حين يصيب

ثم ماذا ؟

قالوا : إن مصر مدينة فى بعض نشاطها الأدبى إلى ناس كان أجدادهم من لبنان

وهذا حق

ولكنى أتحداكم أن تثبتوا أن لبنان نبغ فيه أديب واحد ولم يكن مصدر نبوغه الاتصال بالثقافة المصرية

أتحداكم أن تثبتوا أن فى مقدوركم أن تنقلوا إخوانكم فى مصر إلى مرابعهم فى لبنان

إن الأدباء السوريين واللبنانيين لم يذوقوا طعم المجد الأدبى إلا بعد أن شربوا ماء النيل ، وفلان وأشياع فلان سيظلون من النكرات إلى أن يذوقوا ماء النيل

فتعالوا إلينا أيها الإخوان لنحولكم إلى رجال عظام يسيطرون على الأدب والتاريخ

إن القاهرة تصنع بعقول العرب فى العصر الحديث ما كانت تصنع بغداد فى عصر بنى العباس ؛ فإن استطعتم طمس نور الشمس فامضوا فى عنادكم آمنين !

أتشتم مصر فى لبنان وبفضل مصر تنبه العرب إلى جمال لبنان ؟

* * *

ثم ماذا ؟

ثم زعم فلان وأشياع فلان أن أمثال الدكتور طه حسين والدكتور هيكل والأستاذ احمد أمين والأستاذ لطفى جمعة لم يصنعوا شيئاً ، وأنهم فى مؤلفاتهم لم يكونوا مبتكرين

فهل يستطيع فلان وأشياع فلان أن ينكروا أن لهؤلاء الرجال فضلاً عظيماً فى نشر الثقافة الأدبية والعلمية والذوقية ؟

هل ينكر أحد أن الدكتور طه حسين رجل موهوب وأن صوته وصل إلى المشرقين ؟

هل ينكر أحد أن الدكتور هيكل من أعاظم المتحدثين عن شخصية الرسول ؟

هل ينكر أحد أن الأستاذ احمد أمين وضع أحجاراً متينة فى تاريخ الحضارة الإسلامية ؟

هل ينكر أحد أن لطفى جمعة له أبحاث وفصول تعد من الروائع ؟

ومن هو الأديب الذى يسمح له ضميره بأن يتجاهل أقدار هؤلاء الرجال ؟

قد يتطوع أحدكم فيبعث ما كنتُ قلتُه فى طه حسين واحمد أمين وأنا أعرف أنى قلت فى هذين الرجلين ما قلت باسم النقد الأدبى ، ولكنى مع ذلك أعرف أنهما من أقطاب هذا العصر ، وليس لهما نظير فى لبنان أو غير لبنان ، وسيكون لهذين الرجلين صدى مسموع فى الأقطار العربية يمتد إلى أجيال وأجيال

* * *

أحب أن أعرف لحساب مَنْ يتعب بعض الناس أنفسهم فى الغض من الثقافة المصرية ؟ فمن المستحيل أن يكون هذا التحامل خالصاً لوجه الله والأدب . ومن البعيد أن تكون تلك النزوات بريئة من شوائب الأغراض

لقد آن أن نعرف أن الاستعمار يغزونا من كل جانب . آن أن نعرف أن الاستعمار يريد أن يتخلص أولاً من تفوق مصر فى خدمة اللغة العربية ، لأنه يفهم جيداً أن سيطرة الثقافة المصرية تقوم بفضل اللغة العربية ، وهو يرجو أن يخرس لسان العرب لتحتل مكانه ألسنة روما ولندن وباريس

الاستعمار يفهم أن القاهرة صارت محور الحركة العربية ، ففيها تُعقد المؤتمرات ، وفيها يلتقى العرب بعضهم مع بعض ، وفيها تحل المعضلات ، وإليها يرجع الأمر فى فض الخصومات العربية ، وهو من أجل ذلك يبذل جهده الأثيم فى تنفير العرب من الثقة بالأمة المصرية

فكيف يغفل بعض إخواننا فى لبنان عن هذه الحقائق ؟

كيف ينسى بعض إخواننا فى لبنان أن للمستعمرين مكراً يخفى على إبليس ؟

كيف يجهل بعض إخواننا في لبنان أن تلك الحركة قد تسوق أهل مصر إلى نفض أيديهم من صداقة لبنان ؟

وهل يظنون أن أهل مصر من الملائكة وأنهم لا يعرفون في جميع الأحوال غير الصفح الجميل ؟

أرجو أن يعرف بعض إخواننا في لبنان أننا نلاقي كثيراً من العنت والمشقة في تبديد ما يحيطون به أغراضهم من ظلمات وشبهات .

أرجو أن يعرفوا أن قالة السوء قد تطوّق أعناقهم إذا فكرت الصحافة المصرية في دفع ما يوجهون إلى مصر من زور وبهتان

أرجو أن تعرفوا جميعاً أن يد الله مع الجماعة . أرجو أن تعرفوا أن العروبة تستطيع أن تنسى أن في الدنيا بلداً اسمه لبنان يوم تثق بأنه يضع الأشواك في طريق الوحدة العربية ، ولكن ذلك اليوم سيكون مشئوماً لأن العرب يؤذيهم أن يضيع لبنان

هل تصدقون أنني دافعت عنكم في دمشق وبغداد ؟

هل تصدقون أن الحزن يفعم قلبي كلما تذكرت أن الدسائس الاستعمارية قد تبعدكم عنا إلى غير معاد ؟

هل تصدقون أني طربت حين رأيتني أشتم في بعض مجلاتكم باللغة العربية لا باللغة الفرنسية ؟

وأؤكد لكم أيها الإخوان أني لا أتصدق عليكم بهذا العطف الصادق ، فلو جُمع ما أُنشر في جرائدكم ومجلاتكم من الدعوة إلى الثقة بمصر لتكوّن منه محصول أدبي نفيس . ونحن نعرف منزلتنا في قلوبكم ، ونحرص على أن تبقوا أصدقاء أوفياء ، ولكنكم تعرفون أن الطبيعة الإنسانية يغلب عليها الضعف ، فهي قد تذكر السيئات وتنسى الحسنات . فأرجوكم بالله ألا تحبطوا أعمالكم بمظاهر الغدر والجحود ، فقد تلقون منا من يقابل العدوان بالعدوان

* * *

أما بعد فهذه كلمة صريحة أردت بها وجه الحق ، وما أنكر أن فيها بَدَوات لا تخلو من خشونة وعنف ، ولكن يعزيني أني كنت فيها مخلصاً كل الإخلاص

ولكم أن تثقوا بأن مصر لن تقف إلا حيث تحبون ، ولن تروا منها غير الصدق والوفاء .

زكي مبارك

من رسائلي

هل ينتظر اللغة العربية والأدب العربي الحديث في مصر مستقبل سعيد ؟ لقد بدرت البوادر بشروع بعض الأجانب في الإقبال على تعلم اللغة العربية والاهتمام بمعرفة كتاب مصر البارزين . من رأيي أن الحياة لن تدب في هذه اللغة وهذا الأدب إلا إذا ظفر بقراء كثيرين من هذا العنصر النشط المثقف . وإني لأتخيل اليوم الذي يتم فيه ضم أجانب مصر أو أغلبهم إلى حظيرة قرائنا في لغتنا . هؤلاء الأجانب الذين يعدون القراءة غذاء ذهنياً له ضرورته في حياتهم اليومية ، شأنه في ذلك شأن الحاجات الأولية ؛ هؤلاء الآلاف القليلة من الأجانب الذين استطاعوا أن يكفوا لرواج حوانيت الكتب الأجنبية التي لا يخلو منها شارع كبير في أي مدينة كبيرة من مدن هذه الدولة العربية اللغة ؛ هؤلاء النفر الذين استطاعوا أن ينشئوا لأنفسهم صحفاً ومجلات بلغاتهم المختلفة وأن يضمنوا لها حياة وازدهاراً . ترى ما الذي يحدث لو أن هؤلاء فهموا أخيراً أن استقلال مصر وسيادتها معناه سيادة لغتها وآدابها وفنونها على الأقل فوق أرضها وفي حدود بلادها ، وأن الخير والكياسة والمصلحة تقضي عليهم أن يكفّوا عن تجاهل لغة الدولة وأن يعيشوا بيننا كما يعيش كل أجنبي في دولة محترمة ، يُعنى بتعلم لغتها والاطلاع على أدبها ومسايرة الحياة الذهنية والاجتماعية فيها ؟ لا ريب عندي ، لو وقع ذلك الحدث ، في أن أدبنا سيتغير ويتطور في مثل لمح البصر تطورات تثير الدهشة والعجب . ليس فقط لأن نتاج فكرنا سيرتفع شأنه في السوق ، بل لأنه سيرتفع في ذاته من حيث الصنف والقيمة . فإن القارئ الجيد يخلق الكاتب الجيد ، و «الزبون» المحترم يوجد الحانوت «المحترم» .

لكن . . . كيف نحمل الأجانب على ارتياد « حانوتنا » الفكري وأكثرهم قد استقرت في نفسه بغير علة فكرة الاستخفاف بلغتنا ؟ ما هي الوسائل التي ينبغي أن نتخذها لنزع هذه الفكرة عنهم وترغيبهم في بضاعتنا ؟ هذا سؤال مطروح على القراء المثقفين .

توفيق الحكيم